العتبة العباسية المقدسة

الخميس

أسبوعية ثقافية

٣٣٨

السنة السادسة

الخميس ٢٣ شوال ١٤٣٢هـ
٢٢ /٩/ ٢٠١١م

تصدر عن قسم الشؤون الفكرية والثقافية وحدة الدراسات والنشرات في العتبة العباسية المقدسة

من صدق لسانه
زكى عمله
ومن حسنت نيته
زيد في رزقه
ومن حسن بره
باخوانه واهله
مد في عمره .

الإمام الصادق عليه السلام

إن واجب الأمة في اقتفاء آثار آل البيت - الأئمة مطلب شرعي، يستوي فيه الصحابة والتابعون ومن بعدهم، غير أن غيرهم من الأئمة، ليس هناك نص يفرض على الأمة الاقتداء بهم، بل هم أنفسهم يعلنون ذلك. فهل بهذا التفريط والتسيب الشرعي تثبت الحجة على الناس؟

وإذا كان بعض أئمة الجماعة، يعلن تمرده عن السابقين، ويدعي إنهم رجال (...) فأولى باللاحقين أن يتمردوا على هؤلاء الأئمة.

إنني كمسلم أبحث عن تكاليفي الشرعية، ومصادرها فتبين لي أني مشدود بالواجب إلى الأئمة من آل البيت ﷺ مثلما شد الشرعُ الصحابةَ بهم من قبلنا، ولكنني لم أر دليلاً واحداً ينهض بوجوب اتباع غيرهم.. والأئمة الأربعة هم علماء لأهل السنة بلا شك، ولكن هل وجوب اتباعهم، يستند إلى نص صريح، أو بناء عقلائي متين؟!

وعليه، ما حكم الذين أتوا قبل الأئمة الأربعة؟ من يتبعون؟ وممن يأخذون الدين؟!

ثم لماذا كانوا أربعة وليس أكثر؟ لماذا لا ينفتح باب الاجتهاد لغيرهم ليكونوا أكثر؟ هل ثمة نص محدد لذلك؟.

الأئمة من آل البيت ﷺ ثبتوا بالنص، وبالعقل أيضا.

لقد خرجت من الضيق وشدته إلى سعة الحق ورحابته ومن غبش المعاني إلى الوضوح والجلاء.

وإنه لجدير أن أكشف عن مدى الفجاجة التي لمستها في كل المذاهب التي انفتحت عليها. لقد قادني التفكير إلى مراجعة كل معتقداتي.

وكذلك سارت بي الراحلة، من مذهب إلى آخر، من دين إلى آخر، أنقب، أبحث، فراوحت إلى حضيرة الثقلين.. منبت الهداية، وموطن الحق...

سأقول للتاريخ مرة أخرى: إنني زاولت مسؤوليتي (العقلية) فرأيت الحقَّ مأسوراً خلف قضبان التحريف، مقيداً على أعمدة التضليل...

المستبصر إدريس الحسيني

أفضَل الأعمال

كلُّ يوم يردد المؤذن هذه العبارة:«حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ»، فحيَّ: اسمُ فعلِ أمرٍ بمعنى أقبلْ، وخَيْر: اسم تفضيل، فيكون معنى هذه العبارة: أقبلْ على أفضل عمل، أي أقبل على الصلاة، فالصلاة خير عمل يقوم به المؤمن.

وروي أنَّ رَجُلًا جاءَ إلَى النَّبيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَن أفضَلِ الأَعمال؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : الصَّلاةُ ، ثُمَّ قالَ : مَه ؟ قالَ : الصَّلاةُ، ثُمَّ قالَ : مَه ؟ قالَ : الصَّلاةُ ـ ثلاث مرّات ـ قالَ : فَلمّا غَلَبَ عَلَيه، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ.

وروي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال :«نَجّوا أنفُسَكُم ، اعمَلوا ، وخَيرُ أعمالِكُمُ الصَّلاةُ».

وروي عن مُعاويَةُ بنُ وَهبٍ قال: سَأَلتُ أبا عَبدِ اللهِ عليه السلام عَن أفضَلِ ما يَتَقَرَّبُ بِهِ العِبادُ إلى رَبِّهِم وأحَبِّ ذلكَ إلَى اللهِ جلّ جلاله ما هُوَ ؟ فَقالَ : ما أعلَمُ شَيئًا بَعدَ المَعرِفَةِ أفضَلَ من هذِهِ الصَّلاة ، ألا تَرى أنَّ العَبدَ الصّالِحَ عيسَى بنَ مَريَمَ عليه السلام قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾(مريم : ٣١).

وروي عنه أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال :«إنَّ طاعَةَ اللهِ جلّ جلاله خِدمَتُهُ في الأَرضِ، ولَيسَ شَيءٌ من خِدمَتِهِ يَعدِلُ الصَّلاةَ ، فَمِن ثَمَّ نادَتِ المَلائِكَةُ زَكَريّا عليه السلام وهُوَ قائِمٌ يُصَلّي في المِحرابِ».

وإذا كانت الصلاة أفضل الأعمال فلا بدَّ من إقامتها على الوجه الصحيح،مع الخشوع والخضوع لأنها الوسيلة التي نذكر الله تعالى بها؛ قال الله تعالى:﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه:١٤)، وقال رسول الله ﷺ : «إنَّما فُرِضَتِ الصَّلاةُ . . . لإقامَةِ ذِكرِ اللهِ». وأوَّل عمل يحاسب عنه العبد يوم القيامة هو الصلاة؛ فقد روي عن النبيّ محمد ﷺ : «أوَّلُ ما يُحاسَبُ بِهِ يَومَ القيامَةِ الصَّلاةُ ، فَمَن أجابَ فَقَد سَهُلَ عَلَيهِ ما بَعدَهُ، ومَن لم يُجِب فَقَد اشتَدَّ ما بَعدَهُ».

وروي عنه ﷺ أيضاً:«إنَّ أوَّلَ مَا يُحاسَبُ بِهِ العَبدُ يَومَ القيامَةِ من عَمَلِهِ صَلاتُهُ ، فَإن صَلُحَت فَقَد أفلَحَ وأنجَحَ ، وإن فَسَدَت فَقَد خابَ وخَسِرَ».

المشايعة

- إن الإمام علي ﷺ قد جسد أسمى معاني العبودية لله ﷻ في كل حركة من حركات حياته، نعرف هذه العبودية المطلقة من خلال سورة ﴿هل أتى﴾.. فعلي ﷺ قام بعمل -بحسب ميزان المادة- لا قيمة لهذا الأمر، فكم من المسلمين في زمان النبي ﷺ تصدقوا بآلاف الدراهم، وأعتقوا الرقاب، وعملوا ما عملوا!.. ولكن علياً ﷺ يتصدق بأقراص من الخبز، لو سُعرت في سوق الخبازين، لكان قيمة ذلك دريهمات.. وإذا بسورة كاملة تقريباً تنزل في تخليد هذه القصة.

- إن سر خلود علي ﷺ يفهم من هذه الآية: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾؛ فعلي ﷺ يطعم لوجه الله، لا يريد جزاءً ولا شكورا.. وقاتل لوجه الله، لا يريد جزاءً ولا شكورا.. وعلم لوجه الله، لا يريد جزاءً ولا شكورا.. وتقبل الخلافة على كره، لا يريد جزاءً ولا شكورا.. قدم نفسه للأهوال، لا يريد جزاءً ولا شكورا.. فالإطعام حركة من حركات علي، وعينة من فعل علي..

إن أحدنا يقوم بالأمر، لا يطلب المدح والثناء؛ ولكنه إذا مدح يفرح بهذا المدح، وخاصة إذا كان المدح يصب في طريق الرسالة، لأن فيه دعما لطريق إيماني.. ولكن عليا ﷺ عندما كان يمدح، كان يتألم.. وكان يُظهر هذا التأذي ويقول: (اللهم!. اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون)!.. نعم، الذي عظم الخالق في عينه، ما قيمة الخلق الفاني لينظر إليه؟

علي ﷺ اختصر الفلسفة والعرفان والكلام والسير والسلوك بكلمة واحدة، وهذا مقياس خلود علي ﷺ: (عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم)!

علي ﷺ يريد أن يدلنا على الخلود والارتباط بالخلود.. كل واحد منا مشروع بأن تقبض روحه في كل ثانية وفي كل آن، أحدنا بُعده عن الممات جلطة في المخ، وتوقف في القلب.. وما أكثر موت الفجأة هذه الأيام، للأسباب الظاهرية كالحوادث وغير ذلك!.. وإذا بالإنسان يدخل في نفق مظلم، يختلي بربه في القبر ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وتأتي تلك النفخة، وإذا كل من على هذه الأرض ميت بين يديه ينادي: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟.. لا مجيب.. مليارات من البشر، من آدم ﷺ إلى قيام الساعة، ولكن لا أحد يُجيب!.. فيجيب رب العالمين: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾!..

- إن علياً ﷺ أراد أن يربطنا بالخلود.. فالإنسان الذي يأنس قلبه بالفاني وبالزائل يكون مغبوناً في صفقته هذه.. إذ عليه أن يرتبط بهذا المطلق، ليذوق حلاوة الإيمان.. وحسب ترتيب الآية يبدو أن علياً وفاطمة ﷺ بلغ بهما الجوع ما بلغ في اليوم الثالث، وإذا بهذه القرص النادرة في عالم الوجود، تكون من سهم ذلك الأسير.. وعندما رآهم رسول الله ﷺ بعد هذه الواقعة، تألم، ولعله بكى، وساءه أن يرى ابنته فاطمة، وقد التصق بطنها بظهرها من الجوع، وشحب لونها.. علي ﷺ لا يرد طارقاً، وإن كان أسيراً كافراً، يقدم له القوت الوحيد الذي لديه، فكيف بنا نحن؟.. من المحال أن يردنا ﷺ من بابه.

- إن علياﷺ تابع للوظيفة والتكليف، ليس علي بذلك المزاجي.. فبعض الناس تفتح له بعض أبواب عالم الغيب: لذة في العبادة، أو أنس في الصلاة؛ وإذا به يهجر المجتمع ويعتكف في صومعة!.. ومن قال بأن هذا هو الأنس المطلوب؟!

إن علاقة النبيﷺ بعليﷺ كعلاقته بالزهراءﷺ، هذا المثلث القدسي الملكوتي لم يكن لينفصل.. هذه الرواية تقول: النبي ﷺ طال عهده بعلي، فاحترق شوقاً إلى لقائه فقال: (اللهم لا تمتني حتى تريني وجه علي)!.. ومع ذلك يأتي التكليف: يا علي، اذهب إلى اليمن..

علي ﷺ حُرم من جوار رسول الله ﷺ، وحُرم من عطاء رسول الله.. والنبي ﷺ كذلك حرم من الأنس بعلي: باب سره، وباب مدينة علمه.. ولكنه التكليف!.. (يا علي!.. لئن يهدي الله بك رجلاً، خير لك مما طلعت عليه الشمس وما غربت)، كان بإمكان النبي ﷺ أن يبعث أحد أصحابه إلى اليمن، ولكنه أراد أن يعلمنا درساً.. فالبعض يسأل: ما هو سر النجاح في طريق القرب إلى الله؟.. إنها كلمة واحدة: إذا أردت أن تفتح لك الأبواب، فافتح على غيرك الأبواب بما تعلم (كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته).. إذا عملنا بذلك، لكان أمرنا على خير.

نعمة الجاذبية الأرضية

إعداد / السيد محمد العطار

إنها قوة سخرها الله لجميع الأجسام في الكون لتتجاذب، فالأرض تشدنا نحو مركزها، بفعل قوة جاذبيتها، ولذلك فإننا نحس بالاستقرار على ظهرها، وبالتالي فهي قرار لنا. فلو كنا على سطح القمر مثلاً فإن وزن أحدنا سدس وزنه على الأرض، أي أن الرجل الذي يزن على الأرض ٩٠ كيلو غرام، سيكون وزنه على القمر ١٥ كيلو غرام فقط!

ولا نحس بنعمة الجاذبية إلا عندما نغادر الأرض! وهذا ما يشكو منه رواد الفضاء، حيث يقول العلماء الذين صعدوا إلى الفضاء الخارجي وعاشوا حالة انعدام الوزن أو انعدام الجاذبية أو انعدام الاستقرار على الأرض:

يقول العلماء: إن تصميم الأرض هو التصميم المثالي المناسب للحياة، وقد وُضعت في المدار الصحيح حول الشمس، وجاء حجمها وحركتها وكثافتها وكتلتها... وغير ذلك مناسباً جداً لاستقرار الحياة على ظهرها.

١- إننا نعاني من أمراض كثيرة مثل الغثيان وصعود الدم للأعلى في الجسد بدلاً من الأسفل وبالتالي انتفاخ الوجه، أما العظام فتفقد جزءاً من الكالسيوم. وبالتالي فإن الذي يعيش في الفضاء يُصاب بنخر العظام، بل يفقد من كتلة عظامه كل سنة أكثر من ٢٠ بالمئة.

٢- بسبب عدم الاستقرار وغياب الجاذبية فإن الدورة الدموية ستضطرب وتتشكل حصيات في الكلية، سوف تضمر العضلات، ويتباطأ تقلص الأمعاء مما يعيق هضم الطعام. سوف يرتفع لديه ضغط الدم، ويتسرّع قلبه، مما يسبب له مشاكل في نظام عمل القلب، تبقى لمدة أشهر حتى بعد عودته إلى الأرض.

٣- سوف يختلف إيقاع الجسم الطبيعي بسبب فقدان طلوع الشمس وغروبها، فالظلام يخيم على كل شيء في الفضاء، وبالتالي سوف تختل دورة الجسم ونظامه ولا يعود قادراً على فعل شيء. كما أن الأشعة الكونية القاتلة سوف تؤثر عليه وتسبب أذى لجهازه العصبي، وقد يُصاب بأورام خبيثة نتيجة هذه الإشعاعات.

٤- يعاني من يفقد الجاذبية ويعيش في الفضاء من قلة النوم، لأنه فقد الجاذبية التي تجعل رأسه مستقراً على الفراش أثناء النوم، فهو يحس أنه يسبح في سائل ما، ولذلك لا يتمكن من النوم إلا بصعوبة. وسوف يضعف لديه نظام المناعة، وهذا يمكن أي فيروس من السيطرة على جسده ومن المحتمل أن يُصاب بأي مرض بما في ذلك السرطان!

٥- سوف تحدث اضطرابات عديدة في القلب لأنه سيعمل أكثر، فالجاذبية الأرضية تساعد القلب على ضخ الدم، وعند غياب الجاذبية فإن القلب سيبذل جهداً أكبر مما يُضعف القلب. بل إن الدكتور William Evans من وكالة ناسا للفضاء يقول إن الخروج خارج الأرض هو بمثابة «كابوس طبي» حيث يعجز الطب عن علاج الأمراض الناتجة عن انعدام الجاذبية.

كذلك فإن الذي يعيش في الفضاء بعيداً عن جاذبية الأرض يعاني من صعوبة التبول لأن السوائل تبقى معلقة وملتصقة بجسده ولا تنزل للأسفل! وبالتالي فإن أبسط الأشياء سوف تختل. ويقول الباحثون إن مجرد الحياة في الفضاء يعتبر موتاً بطيئاً!!

وأخيراً هل أدركنا بعد هذه الحقائق أهمية الجاذبية وأهمية أن نكون مستقرين على سطح الأرض؟ هل ازددنا فهماً لمعنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر: ٦٤). وهل أدركنا أن الأرض هي فعلاً بيت ومهد لنا كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ١٠).

هل أدركنا أهمية أن نحس بالاتجاهات من حولنا، هذه النعم بمجرد أن نخرج خارج الأرض سوف نفقدها على الفور بل ونصاب بالأمراض! هذا الإله الرحيم المتفضّل ألا يستحق منا أن نشكره؟! أن نسجد له؟! أن نحبّه؟!

إنها نعم كثيرة أنعمها الله علينا، فكل ما يطلبه هذا الإنسان يحققه له المولى عزّ وجلّ، ونلاحظ كيف أن البشر كلما حاولوا اختراع شيء يسره الله لهم، حاولوا الصعود إلى الفضاء وحقق الله لهم هذا الأمر، وغير ذلك كثير، ولكن الإنسان يظلم نفسه عندما يجحد بهذه النعم التي لا تُعد ولا تُحصى، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم: ٣٤)... اللهم لك الحمد حتى ترضى ... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هل نحن مسيرون أم مخيرون؟

الحلقة الأولى

إن من المسائل الاعتقادية التي وقع النزاع حولها، هي مسألة هل نحن مسيرون أم مخيرون؟.. وهل الحق هو الجبر؟.. أم الحق هو التفويض؟.. والمسألة بحسب الظاهر نظرية، ولكن قطعا لها آثارها الكبرى في حياة الإنسان.

إن الإنسان الذي يعتقد بأنه مسير، سوف يعيش حالة الركون إلى ما هو فيه، ولا يفكر في تغيير واقعه؛ فيعيش حالة الرتابة في الحياة.. لأنه لا يرى نفسه مؤثرا في الوجود، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا﴾.. فما دام القلم قد جف بما هو كائن، فإذاً لماذا السعي؟.. وعندها يرى الإنسان نفسه كأنه قشة في مهب الرياح، أو على سطح البحر، تقلبه الأمواج كيفما تشاء.

والإنسان الذي يرى بأنه مخير، وليس هنالك قدرة مهيمنة عليه؛ فإنه يعيش حالة من الفرعونية الباطنية.. لأنه يرى أنه هو صاحب القرار الأول والأخير في هذه الدنيا، ولا شيء يقف أمامه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وإن لم يقل ذلك بلسانه، وإنما لسان حاله يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾.. فيرى نفسه ربا لنفسه على الأقل، فيقول: أنا مالك لأمري، وليس هنالك من يتدخل في شؤوني.

فما هي الكلمة الحق في هذا المجال؟

إن القرآن الكريم فيه صنفان من الآيات: صنف قد يشم منه البعض رائحة الجبر، وصنف يستشف منه التفويض.. فلندرس الطائفتين من هذه الآيات الكريمة.

إن المسلمين انقسموا إلى فرق: هناك جماعة من فرق المسلمين اعتقدوا بالجبر، وتاريخهم معلوم.. وقسم منهم المفوضون.. وخط أهل البيت معروف أنه خط الأمر بين الأمرين (لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين الأمرين).

هناك مجموعة آيات، بل أنواع من الآيات.. تدل بشكل واضح، على أنه ليس هنالك جبر في الحياة:

النوع الأول: هنالك نوع يدل على أن الإحسان والإساءة منتسبين إلى العبد، وليس هنالك شخص آخر، أو جهة أخرى مسؤولة عن أعمال العبد: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، ﴿قُلْ إِنِ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾.. إن هذا الصنف من الآيات، دالة على نفي الجبر.

النوع الثاني: الآيات الدالة على نفي الظلم عن الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.. ونحن نعلم أن العبد إذا كان مسيرا، أو مكرها، أو مجبرا؛ فلا معنى لعقوبته.. وهذه الآيات، وهي قرابة أربعون آية في القرآن الكريم، تدل على هذا المعنى الإجمالي.

النوع الثالث: إن الصنف الثالث من الآيات، يدل على أن الله عز وجل خلق الموت والحياة ليختبر الناس: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.. فإذن، إن معنى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾؛ أي أن هنالك حرية في اختيار العمل الأحسن.. وهنالك أكثر من ستين آية في القرآن، تدل على هذا المعنى الإجمالي.

النوع الرابع: والصنف الرابع من الآيات، دالة وداعية إلى الحذر والتضرع، ولو كان الأمر هو التسيير، وهو الجبر.. فعندئذ لا معنى للتضرع: ﴿أَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.. فإذن، إن التضرع له دوره في رفع المقدرات، ورفع العذاب الإلهي.. وهنالك سبعون آية -تقريبا- تدل على هذا المعنى؛ أي أن الحذر والتقوى والإيمان -هذه الأمور- مؤثرة في مسيرة الإنسان.

النوع الخامس: إن الطائفة الخامسة من الآيات، تدل على أن الثواب والعقاب مستندان إلى فعل العبد، لا إلى أمر خارجي.. قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾، ﴿ذلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾، ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.. فإذن، إن هذه الآيات نسبت الجزاء إلى فعل العبد.

النوع السادس: إن الصنف السادس، هي آيات توبيخ الكفار والفساق.. والإنسان غير المختار لا يوبخ، فحتى في حياتنا اليومية رغم أن الطفل يفعل الأعمال باختياره، ولكنه غير مكلف، فإن الإنسان يعاتب من كثرة توبيخ الطفل الذي رفع عنه القلم.. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾، ﴿كَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾، ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾.. إن كل هذه الآيات موبخة، وتدل على أن الإنسان أيضا مخير في عمله.

النوع السابع: هنالك آيات واضحة، تدل على أن الإنسان مخير، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾.. فهنالك تصريح، بأن هذه الحالة من الاختيار.

النوع الثامن: الآيات التي تدعو إلى المسارعة في الخير، ﴿اسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾.. فإذا كان لا مجال في الترقي، فلماذا ندعى للمسارعة في الخيرات؟..

النوع التاسع: نقرأ يوميا صنفا آخر في سورة الحمد: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾؛ أي يا رب أنا أستعين بك.. ولو كان الله هو الفاعل، فلا معنى للاستعانة.. فالاستعانة تطلق عندما يفعل الإنسان فعلا اختياريا، ولكنه يستعين بغيره.

النوع العاشر: وكذلك من الآيات الدالة على هذه الحالة، اعتراف الكفار يوم القيامة، عندما يحكم على الناس بدخول النار ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾.. فإذن، إن هؤلاء فلسفوا حكمهم بالبقاء في النار، على أنهم كانوا مقصرين، وإلا بإمكانهم أن يقولوا: ربنا أدخلتنا النار بفعلك، فنحن لم نعمل شيئا اختياريا.

الإمام الصادق عليه السلام ملهم الكيمياء

يعتبر الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام صاحب مدرسة فكرية كبرى كان لها وجود عالمي وفضل كبير على الإسلام. فهذا الإمام طلب الحكمة وسعى لاكتناه الحياة ومثل أسرارها وغاص على عميق معانيها وفجّر الينابيع الثرّة بطاقة العقل وصفاء النفس، وأخذ بيد الإنسان وقادة إلى مناهل المعرفة بكلّ ما فيها من عمق وشمول.

ولد الإمام جعفر بن محمد (الصادق) في المدينة بمنزل جده علي زين العابدين عليه السلام ومات ودفن في البقيع في ضريح عمّه الحسن بن علي عليه السلام من عمر قدّر بثمانية وستين عاماً.

والده هو الإمام محمد بن علي (باقر العلوم) عليه السلام. وأمّه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. تربّى في كنف جده الإمام زين العابدين عليه السلام ما بين عشرة إلى أربعة عشر عاماً، وفي كنف والده الإمام محمد الباقر عليه السلام نحو من ثلاثين عاماً درس خلالها عليه، وتطبع بصفات الفضل ومحبة العلم، وتعلّم من جده أن يُطعم حتى لا يبقى لعياله طعاماً، وأن يكسو حتى لا تبقى لهم كسوة.

إن إحصاء فضله وسعة علمه وآفاق فكره وعبقريته ضرب من المستحيل، كما أنّ الإحاطة بتاريخ حياته من الصعوبة بمكان، ويكفي أن نعلم أنه تميّز بالحنكة السياسية والصبر على المكاره والمداراة، فلم يعرّض نفسه للخطر، ورفض الخلافة عندما عرضت عليه، ونصح ابن عمه (النفس الزكية) وأخوته من أبناء الحسن بالابتعاد عن المعارضة المسلحة ضد العباسيين كما أعلن براءته من (أبي الخطّاب) المتهم بالغلو والإلحاد إرضاءً للرأي العام.

لابدّ لنا ونحن في رحاب الإمام الصادق عليه السلام من الوقوف قليلاً لإلقاء نظرة عابرة على علم الكيمياء ودور تلميذه جابر بن حيّان الذي أخذ عنه هذا العلم وسعى إلى تطويره وإخراجه من الجمود والسحر والشعوذة والتدجيل والخرافات إلى علم يقوم على البحث والاختبار، ويقود إلى خير الإنسانية وسعادتها.

يقول ابن النديم في الفهرست رداً على بعض المصادر المغرضة التي شكّكت في وجوده واعتبرته أسطورة وهمية:

الرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر وتصنيفاته أعظم وأكثر، ولهذا الرجل عدداً من الكتب في مذهب الشيعة. ويؤكد سارطون، وهو لميارد، وكوربان أنّ جابراً كان حقيقة وليس أسطورة. وتؤكد المصادر:

أنه عاش في النصف الأول من القرن الثامن للميلاد، وهناك إجماعٌ وتأكيدٌ على اتصاله (بالبرامكة) الذين كانوا يحافظون على (التقية) في علاقاتهم بالإمام الصادق عليه السلام، وقد يكون هذا الاتصال سبباً في نكبتهم الكبرى المعروفة.

أما نسبه فيتصل بقبيلة (الأزد) ومسقط رأسه في طوس من أعمال خراسان يؤيد ذلك الشهرستاني والأب لويس شيخو اليسوعي، كما أنّ هنالك إجماعاً على وفاته في طوس سنة ١٩٦هـ.

ولكن من المؤسف أن القدامى لم يفصحوا عن مكان قبره غير أن الصحف الإيرانية تناقلت سنة ١٩٧٢م خبراً مفاده: أنه أثناء إجراء أعمال تسطيح طريق جديد خلف الجبل المحاذي للحدود العراقية عثر العمّال على بناء قديم دلّت الكتابات المنحوتة على صخرة أنه مدفن جابر بن حيّان.

وإذا صحّ خبر وجود قبر جابر في تلك المنطقة (الرسنان) الواقعة شرقي الحدود العراقية فيمكن القول: أنه بعد هروبه من بغداد لجأ إلى أقرب جبال من بغداد واقعة في إيران وذلك بعد أن ترك الكوفة ومختبره الكيماوي ومنزله، وجميع ما يملك وتوجّه إلى الشرق مجتازاً دجلة والفرات.

ويقول ابن النديم أيضاً:

كان جابر بن حيّان رياضياً وفيلسوفاً وكيميائياً وعالماً بالفلك وطبيباً له مؤلفات في المنطق والفلسفة وعلم الباطن وغالى بعضهم فنسب إليه اختراع الجبر. إن هذه الثقافة الموسوعية يصفها جابر قائلاً:

إنه تلقّاها من سيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام ويردها جميعها إلى ملهمه الذي يطلق عليه اسم (معدن الحكمة). ويزيد على قوله: إنه لم يبقى أمامي إلاّ جمعها وترتيبها.

وكل هذا يعزّز الأقوال الشيعية أن جابر كانت له رتبة كبيرة في دعوة الإمام الصادق عليه السلام وهي (الباب) وتأتي هذه المرتبة بعد الإمام مباشرة.

قلنا: أنّ لجابر مؤلفات عديدة في مختلف العلوم، وقد تكون رسالته في التربية وبيان العلاقة بين المعلم والمتعلم أهم ما كتبه، وتعتبر من روائع الآثار التربوية ففيها فصّل جابر واجبات وحقوق كل من المدرّس والتلميذ، ويلتقي فيها مع أحدث الأساليب للدول الحضارية المتقدمة صاحبة الأولية في الثقافة والعلوم والآداب.

ومن الواضح أنّ جابراً لم يكن الوحيد الذي تتلمذ على الإمام الصادق عليه السلام فهناك العديد من العلماء والفقهاء وأصحاب المذاهب انتسبوا إلى مدرسته ودرسوا عليه الفقه والحديث وعلم الكلام والمنطق والفلسفة واللغة والآداب، وهؤلاء تركوا بعدهم المراجع العديدة بين أيدي الناس ينهلون منها ويأخذون عنها.

والفضل كل الفضل لهذا المعلم الحكيم الذي كرّس حياته لخدمة الإسلام دون تمييز بين فرقه وطوائفه ومذاهبه.

الضياع

أحمد السيلاوي

تعثرت كلماته وكأن صوته يخرج من بئر سحيقة القرار وقد أخذ الصراع النفسي يأكل قلبه الغض .

كان المحقق يصيح السمع للفتى نجيب مصوباً نحوه نظرات نارية منذرة بفنون التهديد والتعذيب ، ثم أصدر أمره الحازم ..

عد إلى غرفتك وإلى جدرانك الصماء ، وستدرك جيدا أنك تضر نفسك بتبديل أقوالك .

سار المحقق خارج غرفته بضع خطوات وإذا به أمام رجل في عقده الخامس قد كسي من الوقار والاتزان حللاً ، حاملاً بيده أوراقاً طلب تسليمها للفتى نجيب .

فحص المحقق الأوراق بسرعة ونظر إليها بتعجب ظاهر ثم رفع رأسه وقال مخاطبا الرجل :إذاً نجيب من الطلبة المتازين وفي المرحلة المتوسطة كما يظهر من شهاداته المدرسية ، ومن تكون حضرتك ؟

أجاب الرجل بتأثر بالغ:

- أستاذ وموجه في مدرسته منذ تسعة أعوام تقريباً .

- حسنا هل يمكنني طرح بعض الأسئلة ؟

- تفضل .

- ماذا تعرف عن نجيب ؟

زفر الأستاذ زفرة عميقة جالت في رحاب الأسى وقال بثقة بالغة :

- نجيب أيها المحقق طالب يقطر الأدب من كلامه، وترتقي المعالي بأخلاقه ، إنه رقيق الإحساس ، شفيف المشاعر ، نادر المثال ، تتمازج إبداعات عقله بإشراقات روحه ؛ كان يقدم لنا أعمالا مدرسية رائعة..

- هل لاحظتم عليه ما يريب في سابق أيامه ؟ دارت الكآبة في محيا الأستاذ وقال بتأسف ظاهر :

- أقسم أننا (كهيئة تدريسية) لم نلحظ على نجيب سوى مايدعو للفخار والرفعة والشموخ والعزة، كان يغذي سفوح آمالنا إذا أجدبت لمرأى الأجيال أمامنا .. كان الأمل والعزاء ، كان ثمرة العطاء . صمت الأستاذ قليلا وهو ينظر للأفق ثم أكمل :

- هل تصدق أننا جميعا في حيرة بالغة ؟!! لم نصدق حتى أثبت لنا أنه متهم. مسكين ، كيف أصبح متهما .. ماهي الظروف التي قتلته ؟ شيء عجيب .. شيء .. وغادرت الكلمات مرفأها لفترة ثم قال :

- أتسمح لي بزيارته ؟

لم يستطع المحقق منع الأستاذ من زيارة طالبه الأثير، وقال لنفسه : (قد تبدد هذه الزيارة بعض الغيوم وتفسر شيئاً من الأحداث) .

ما أن رأى نجيب أستاذه الوقور أمامه حتى نهض مصافحاً خجلاً وقد بدا منكمشاً كسيفاً قد غادرت الابتسامة محياه وذهبت الآمال من مقلتيه ، وقبل أن ينطق الأستاذ بهمسة أحس نجيب بوابل الأسئلة تمطره وأنه يقف تحتها مرتدياً أثواباً شفافة خفيفة مهترئة وتذكر أن (الحقيقة لا تغطى بغربال) ،كما علمه أستاذه الفاضل .

ود لو يتطاير رماداً ليعود محمولاً مع ذرات الغبار وينعم في فصله الدراسي بين زملائه وأمام أساتذته ، لكنه خاطب نفسه قاتل الله القسوة و الغلظة والبخل والجفاء وسامح الله الأثرياء الذين لم يلتفتوا إلى أمثالنا .

وأحس بيدي الأستاذ الحانيتين تربتان على كتفه لتطمئن وجيب قلبه .

(نجيب .. أضاعوك وأي فتى أضاعوا) .

- نجيب ولدي الحبيب،اصدقني وأخبرني كيف دخلت سراديب الضياع، ومتى أصبحت تلهث خلف الأفاعي والذئاب ؟ نجيب ولدي ..كيف؟

ومد الأستاذ يدين مرتجفتين لتمسح دموعاً حرى انهمرت من عيني الفتى فرأى الأحزان قد نسجت ستراً . بدا نجيب فيه حزيناً ذاهلا دامعاً وبعد أن هدأ روعه رفع حاجبيه وطار إلى الأفق حيث كان يستمع إلى حديث أمه وشكواها المتواصلة ، فالعمل قد ضاق على والده، وقبل أن تثمر غرسات الوالد انقطع شريان الماء ، فجفت الأزاهير والبراعم .. لم يفكر أحد بالإسعاف الأولي أو المبدئي ، جميع من حولنا يركضون خلف عرباتهم التي تحمل رياشهم .. ربما رمى أحدهم لنا شيئاً من فتات مائدته أو قمامات أدواته مغطاة بنظرات الشفقة والرثاء ومختومة بعبارات المن والأذى .

تحملت أمي وتحمل جميع الأهل جبال هموم الفقر ، لكن أخي الذي كان يدرس في الخارج – وقد اقترب من نيل شهادة عالية بتقدير مشرف – لم يرحمه أحد من عباد الله فكاد أن يقطع دراسته ويبتر آمال أمي وأحلام أبي وتحرم العائلة جميعها من أكل ثمرة واحدة قد تحمل غراس ثمرات قادمة.صمت نجيب قليلا ثم أردف بصوت حزين: أكلتنا الفاقة يا أستاذ..الغذاء الذي يمد به الأغنياء الفقراء سام مدمر غير ذاك الذي تمدنا به دروسك يا أستاذ .

حاولت الهرب من الذل والكآبة والحزن والآهات والدموع التي استعمرت حياتنا الأسرية تجولت في الشوارع ليلاً ونهاراً ، بحثا عن هواء نظيف ينعش كياني، فأنعشني هواء الليل ولفحتني شمس النهار.

وتعرفت إلى أصحاب وزملاء،تماسكت وشائجنا ، وعلقت آمالنا على سفوح همومنا . وهمس لي أحدهم : هل تبحث عن إسعاف و إغاثة؟ أجبت بحماس :أجل أجل .

إذن أخبر أهلك أنك ستعمل منذ الليلة القادمة في شركة لتوزيع البضائع الضوئية وهذه شركة لا تعمل إلا ليلاً !! تساءلت بلهفة : بمقابل ؟ فأجابني بثقة وسرور :يبلغ مئات الدولارات كل ليلة !! مئات الدولارات ؟ كدت أرقص طرباً في ليلة حالكة في شارع مظلم متشعب الأزقة .. وحدثت نفسي : بعد غد فقط سأضع بلسم الإغاثة الأول بين يدي أمي ، بل سأبرقه إلى أخي ليكمل فصله الأخير وأحمل الوصولات إلى أمي ، سأحقق حلمها وستتوقف أمواج الحزن التي فتت قلبها وسأغيث أنفاسها المتحشرجة وسيثبت والدي قدمه المترجرجة.. والمهم أن أخي سيكمل فصله الأخير دون من أو أذى ! .. وانعقدت بنفس نجيب غصات حزن مرير وأطبق أهدابه وغاص في بحار ضياعه بصمت مريب .

لكن الأستاذ سأله وقد زارت الشكوك قلبه وعقله الفطن :

ما حقيقة البضائع ؟

هذا ما أحطت به علماً عندما أحاطت الشرطة ببيتنا ليلاً وتم الفصل الأخير يا أستاذي (فقد ثبت أن البضاعة التي لا تحتمل الضوء هي التي تقتل النور في قلوبنا .. إنها المخدرات) .

ماجت الدنيا بناظري الأستاذ واستوطنت الآلام سراديب أحاسيسه واحتوى نجيب بيديه وهو يقول :ستبقى جرائم المجتمعات المادية تلطخ شوارعها المضيئة..

فلهذا نحذر ابناءنا وشبابنا من الانجرار وراء الملذات وعدم السير مع المشبوهين حافظاً على أنفسهم وعوائلهم.

إعداد / السيد محمد العطار

إن الإمام (صلوات الله وسلامهُ عليه)لهُ توقعات من شيعته ومن محبيه.. من هذه التوقعات اجتماعهم في أيام الجمعة، وتداول الحديث فيما يصلح أمر الدنيا والآخرة.. صلوات الجماعة والجمعة؛ هذه الحالة الباطنية تكشف عن حالة من الاستعداد لنصرته (صلوات الله وسلامهُ عليه).. من منا لا يحب أن يكون مع عياله في منزله، أو في رحلة؟.. كُل مجيء إلى صلاة جمعة وجماعة،

وكذلك في خصوص صلاة الصبح في المساجد؛ فيها معاناة وفيها مجاهدة؛ ولكن كل ذلك بعين الله عز وجل.

إن من صفات المؤمن أنهُ إنسان فاعل في الحياة، ولكن -مع الأسف- بعض الناس تراهُ متقاعسا في الحياة؛ لهُ وظيفة إدارية يبقى فيها إلى آخر عمره، ولا يترقى في عمله.. هذه ليست صفة من صفات المؤمن..

هنالك رواية غريبة جداً؛ (كان رسول الله ﷺ إذا نظر إلى الرجل فأعجبه قال: هل له حرفة؟.. فإن قالوا: لا، قال: سقط من عيني، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟!.. قال: لأنّ المؤمن إذا لم يكن له حرفة، يعيش بدينه).. لعلَّ الإعجاب يعني الإعجاب الظاهري كأي مسلم، وعندما يسقط من عين النبي فذلك باعتبار واقعه.

نحنُ نَعلم أن الله -عز وجل- يحبُ التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المتقربين إليه في الطاعات.. ولكن هل تعلم بأن الله يحب أيضاً العبد المؤمن المحترف؟!.. وقد حثّ رسول الله ﷺ على إتقان العمل، ولعل حادثة مشاركة الرسول ﷺ في دفن الصحابي الجليل (سعد بن معاذ) خير شاهد على ذلك، فقد روي أنه لما فرغ من دفنه وسوّى عليه التراب قال ﷺ: (إني لأعلم أنه سيبلى ويصل البلى إليه، ولكن الله يحبّ عبدا إذا عمل عملا أحكمه).. ومع الأسف هناك بعض الأخوان في مجال عملهم لا يتقنون وظائفهم.

إن الذي لا يؤدي واجبه الوظيفي كما ينبغي، كأن يذهب إلى وظيفته أربع ساعات بدلاً من ثمان ساعات؛ فإنه لا يستحق الراتب الذي يؤخذ إزاء هذا العمل المنقوص.. وعليه، فإن هذا المال ظاهرهُ مال حلال، وباطنهُ مالٌ حرام.. كيف يأكل هذا المال الحرام، وهو يتوقع التوفيقات المعنوية وغيرها؟!

إن المؤمن إنسان منضبط يعمل بواجبه كأفضل ما يكون، إنسان فاعل في الحياة.. ولكن يجمع بين التكليفين: بينَ واجبهُ تجاه ربه، وبين واجبه تجاه المجتمع.. والذي يصور هذا المعنى جيداً الآيات الأخيرة من سورة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

إن يوم الجمعة قبل الإسلام كان يسمى بيوم العروبة.. لعله من باب أن السبت لليهود، والأحد للنصارى، ويوم الجمعة للعرب.. ولكن ثُلة من المؤمنين اجتمعوا قبل هجرة النبي إلى المدينة، وأقاموا صلاة الجمعة، فاتفقوا أن يسموا هذا اليوم بيوم الجمعة، والقرآن نزل على هذا المعنى ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾.. هذه مباركة الله -عز وجل- في فعل البعض.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، كل المعنى في كلمة ﴿فَاسْعَوْا﴾!.. بعض الأوقات الإنسان يذهب إلى صلاة الجمعة إسقاطا للتكليف، وتخلصاً من وخز الضمير، ولقاءً مع بعض المؤمنين.. الخ.. ولكن ﴿فَاسْعَوْا﴾ كلمة فيها شوق، وفيها حب.. المؤمن قلبهُ معلقٌ بالمساجد، يصل المؤمن إلى درجة من الدرجات يجد أنسهُ ولذتهُ في المسجد.. إن الإنسان إذا ذهب إلى بلدة؛ فإنه يأخذ الدليل السياحي، ويسأل عن: المتاحف، والمطاعم، وأماكن الترفيه، وما شابه ذلك.. أما بالنسبة إلى الإنسان المؤمن، فإن أفضل مكان وأول مكان يزوره في ذلك البلد، هي المقبرة.. هذا ذوق المؤمن؛ أنسهُ بما يقربهُ إلى الله عز وجل.. كيف يأنس الإنسان بمكان نسب إلى اللهو، والحال بأن أنسهُ بمكانين: المقابر والمساجد؟!.. طبعاً هذا يحتاج إلى تربية روحية عالية، ليس كل إنسان يأنس بالمقابر..

كان أحد العلماء الكبار في النجف الأشرف قد أمضى ستة أشهر من حياته في وادي السلام.. طبعاً هذه حالة استثنائية.

المؤمن يصل إلى درجات تنقلب عندهُ الموازين، كما يشير إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في خطابه لكميل: (استلانوا ما استوعره المترفون، وآنسوا بما استوحش منه الجاهلون).. المترف يستوعر بعض الأمور، والمؤمن عكس ذلك.

تحرير: السيد محمد العطار
تصميم وإخراج: أحمد الشلالي